عبقرية محيطة

— ليوناردو الرجل —

لدريب عباسي

في يوم من ايام الربيع الضاحكة عام ١٤٥١ قام مسجّل العقود بيترو داڤنشي من مدينة فلورنسا يؤمّ قريته ڤنشي . ولكن عرض له ان يعرج على قرية صغيرة في الطريق . وبعد ان قضى حاجته بدا له ان يزور حانتها ويروي غُلّته مما في دنانها من خمور واشربة سائغة . وكان روي الحانة فتاة قروية ساذجة في منتصف العقد الثاني من عمرها ، شخّص نهداها واعتدل قوامها ونضجت أنوثتها ورآها بيترو تغدو وتجيء بين الشرب ، ولكن في وقار وحشمة . على ان بيترو المجرّب لم يحفل هذا المظهر من مظاهر الوقار والحشمة في الفتاة ، وآلى ألاّ يفوته هذا الصيد الطريف . وتلكّأ هناك بحجة صيد السمان ، واخذ الفتى ينصب شراكه ويعدّ شباكه ، ولكن لا ليصطاد السمان ، بل ليصطاد القروية العذراء كاترين . وقاومت الفتاة فتنة الرجولة الكاملة والأثواب الزاهية والالفاظ المعسولة ، واستنجدت العذراء وتحصّنت بجميع القديسين ، ولكن بيترو — برغم ذلك — استطاع ان يصطاد فتاة احلامه المشتهاة

ودار الفلك دورته ، واذا كاترين تضع بشراً سويّاً ، واذا بيترو يفرّ فراراً ، واذا الشائعة تطير وتقع في مسمع الشيخ الطونيو والد بيترو واذا الشيخ تخلي مراجله ويرسلها شواظ لعنات تترى لتنصبّ على رأس هذا الابن الفاسد المفسد ، ثم يدفع به فوراً الى فلورنسا ويعقد على خور دميمة ، ولكنها ذات ثراء وفي نسب

اما الفتاة — وكانت يتيمة — فقد رأى الشيخ ان يزفها الى عامل فقير من عمّاله ورضي هذا ان يُسبل عليها ستره وينطّيها بشرفه مقابل كرم من الزيتون يُوهبه . واستكانت المسكينة لتدبير الشيخ ، كما استكان الابن من قبل ، وان كان ذلك على كره منه ، وكان يؤثر الاّ تقطع بينهُ وبينها جميع الاسباب

وضمّ الجدُّ حفيده اليه وعهد بتربيته الى زوجه . وظاهر من فعلة الشيخ وحدبه على الصغير ان حوادث السفاح والولادة غير الشرعية لم يكن يُنظر اليها اذ ذاك نظرة الاحتقار والزراية . ودليل ذلك ان ليوناردو شبّ وترعرع لا يشعر بمهانة ولا يحسّ حقداً او موجدة على والدته التي ترخّصت واعملت نفسها لأثم ابيه فأتت به سفاحاً . بل هو — على العكس — لم ينسها قط ، ولم ينسَ ان

يتسلل في سواد الليل من حضن الجدة . وهي تغط ، ويفتح النافذة وينحدر على اغصان تينة دانية ثم يذهب يعدو كالظليم على الاحجار شاحذة الاسنان والاشواك مشرعة كالاسل ليلم بعض ساعات بحنو الأم . فاذا اقبل الفجر ايقظته الأم ليعود الى حيث كان فلا تعلم الجدة بهذه الزورات الليلية

***

وشب ليوناردو بين اترابه ولداته غريباً عنهم بعض الغرابة بعيداً عنهم بعض البعد . فلم يكن يروقه ما يمارسونه من العاب عنيفة ويرتكبونه من قسوة ، ولم يكن يطيق ان يرى الفراشة الجميلة في ايديهم يُنتَتَف جناحاها وتطرح على الارض لتدب بدل ان تطير وتحبو بدل ان ترفّ . ويروي مترجمو ليوناردو انهُ اضرب عن اكل اللحوم زمناً غير يسير لانهُ رأى غادماً في بيت جدّه يضرب خنزيراً رضيعاً ضرباً مؤلماً . ويروون ايضاً انهُ شاهد ذات يوم صبية تعلّقوا بخطاف كانوا قد احتالوا على اسره ، وبعد ان اروا رغباتهم الجامحة من تعذيبه ربطوه بخيط ليطيّروا به ويلقوه بين فكي كلب من كلاب الصيد . وادرك ما يوشكون ان يصنعوا فهجم عليهم ، وفي لمحات سريعات قوية صرع ثلاثة من الصبيان واختطف الخلد والطلق يعدو لا يلوي على شيء . ولم يفق الصبية من دهشة المفاجأة التي لم يكونوا يتوقعونها من الفتى المسالم حتى اصبح منهم على بعد غير يسير . وعندها قاموا يلعبون ويضحكون ويصفرون ، ثم اندفعوا وراءهُ يحرّقون الارض . وكان اكبرهم سناً يكبر ليوناردو بخمس سنوات . فلم يمضِ الاّ القليل حتى لحق بهِ وامسك بتلابيبه . ولحقت بهِ بقية الزمرة واشتبك معهم ليوناردو في نضال عنيف ما كان ليخرج سالماً منهُ لولا ان قيّض له الحظ بستاني جدّه فأسرع حالاً الى نجدته وخلّصهُ من قبضة هذا الرهط الخانق الموتور . واستطاع ليوناردو في اثناء العراك ان يطلق الخلد من يده ، فراح هذا يعدو ناجياً بجلده . وهكذا نال ليوناردو بغيته من تخليص الخلد من اذى آسريه

هذا وقد زاد في حب ليوناردو للعزلة في طفولته انهُ كان في تفكيره وذكائه يسمو درجات فوق مستوى الصبيان في سنهِ . فلم يكن يرتاح الى الاختلاط بهم ومشاركتهم في متعهم الصبيانية

اضف الى هذا ما كان يعانيه من مَنّ اخوته الكثيرين (تزوج والده اربع مرات) وحسدهم الذي كان يشبُّهُ في صدورهم ويذكيه ما كان عليهِ من بروز في الصفات الجسمية والعقلية على السواء . وقد زيّن الحقد لهؤلاء الاخوة ان يستغلّوا ولادة ليوناردو غير المشروعة ليحرموه من ارثه . الاّ ان هذه العداوة لم تؤثر فيهِ قط . وذلك ان العالم كان في نظره اوسع من محيط العائلة الضيق . لهذا لم يحقد على اخوته ولم يحتزها لهم . بل نحن نرى من اريحيته وكرم طباعه انهُ يوصي في وصيته بمبلغ من المال لهؤلاء الاخوة الناقمين

واعتزم الجدُّ ان يعلّم الحفيد ، واختار ان يكون هو اوّل المعلمين لهُ . الاّ ان ميول الشيخ وانواقه كانت غير ميول الفتى العبقري ، فلم يمضِ الاّ القليل حتى برم التلميذ بمعلمه واخذ ينمى

ليوناردو ده ڤنشي

Leonardo da Vinci

لعلم صفحة ٤٣٧

اشدّ السعي ليتخلّص من مجالس الشيخ التدريسية وعلى كل لم تلبث ميول الفتى الصحيحة ان تكشّفت واسفرت ، فاراح بذلك واستراح

***

وفي ذات يوم وقعت في يدي الأب صورة مما كان يصوّره ليوناردو عابثاً ، فرآها على شيء تستحق من أجله ان تعرض على ارباب الفن ، فأخذها وسار بها الى صديق من اصدقائه الفنانين . فتبين الفنان توًّا مواهب الفتى الفنّية . ونصح للأب ان يدفع ابنه في هذه الناحية ، ورضي هو ان يكون مدرّبه واستاذه . ولم يكن في فلورنسا اذ ذاك فنان أنبه منهُ شأناً واوسع قدماً . الا ان الفتى المتوقد لم يلبث حتى بزّ الاستاذ وحتى لم يبق لهذا الأخير ما يستطيع ان يعلل به نهم هذا الطالب الى المعرفة والاستزادة من أسباب التجديد في الفن . ولم يجيء عام ١٤٧٢ حتى كان ليوناردو عضواً في نقابة المصورين في فلورنسا

بيد ان ليوناردو لم ينجح نجاحاً ماديًّا في فلورنسا مع انهُ كان في نظر القوم خير من تمخضت عنهُ النهضة واشرف من أنجبته . واحسّ في فلورنسا بغربة الغريب الذي يشعر انهُ مخلوق لغير هذا المحيط وموجود لخلاف تلك البيئة . والذي كان ينقص ليوناردو من عناصر النجاح المادي عناصر المقالبة والاندفاع مع الدعوى العريضة واجادة الاعلان عن النفس . وهي صفات أبعد ما تكون عن طبيعة ليوناردو المتأبية وعرفانهِ قدر نفسه . لهذا نراه في سن الثلاثين قد انتقل الى ميلان وانتظم في خدمة الدوق وانبرى في تنفيذ رغائبه المتعددة دون ان يبدو منهُ شيء من السأم او ايثار نوع من العمل على نوع آخر . ولعلّ هذا شيء من اعتقاد ليوناردو اعتقاداً قويًّا ان جميع الاشياء على السواء في قيمتها المطلقة لا تفاضل ولا ترجيح بينها ، وان الفرق بين شيء وآخر انما هو فرق في العرض دون الجوهر . بل لقد ذهب ليوناردو الى أبعد من هذا وقال ان جميع اشكال المادة يمكن تحويلها بعضها الى بعض

***

ولبث ليوناردو ثلاث سنوات في ميلان يعمل اعمالاً فنية وعلمية مختلفة أهمها صورة العشاء الرباني . وبعدها بعام قطع الفرنسيون جبال الالب وأمسوا دوق ميلان ، فرأى ليوناردو عندها ان يغادر المدينة الى البندقية . الا انهُ تعود فتراه وقد رجع ثانية الى فلورنسا . وذلك في فاتحة القرن السادس عشر . وهناك انكبّ انكباباً على الهندسة والتشريح دون ان يعنى بالتصوير الا أقل العناية وأهم اعمال ليوناردو الفنية في هذه الفترة صورة موناليزا : وهي امرأة بارعة الجمال فقدت وحيدها فخيّمت عليها سحابة ملازمة من الحزن . رآها ليوناردو ذات يوم قراعة جمالها ، وعرض عليها ان

يصوّرها فقبلت راضية . ولكي يبدد ليوناردو عنها هذه السحابة الخفيفة من الحزن كان يستأجر جوقة موسيقية تعزف امامها وانا ساً يجيدون العبث ليُسَرُّوا عنها فيستطيع الفنان ان يسترق من شفتيها تلك الابتسامة العجيبة ويخلدها على القماش . ولقد سلخ ليوناردو اربع سنوات في رسم هذه الصورة مما اطلق الالسنة بالاقاويل عن علاقة الفنان بأنموذجه . وليس ثمّ غير هذه الاقاويل والاّ هذا الحرص الشديد من ليوناردو على الصورة اشياء تشير الى نوع العلاقة التي كانت بين الفنان وأنموذجه . ولم يتخلّ ليوناردو عن الصورة طيلة حياته . فكان ينقلها من محل الى آخر بين اقدس الاشياء لديه ، وظلّت هي وقصان صوفية من صنع والدته أعزّ ما يحرص عليه ويتشبث به الى ان وافاه أجله . على ان برجفكي يلتمس عذراً للفنان على هذا الولوع بالصورة ان ليوناردو قد سكب في ظلالها روحه ومزج في ألوانها بعض شخصه . فهو اذ يحرص عليها يحرص على بضعة من نفسه . هذا ويجب ألاّ ننسى ان ليوناردو ظلّ اعزب طيلة حياته . ومخطوطاته على كثرتها لا يرد فيها ذكر للمرأة الاّ مرة واحدة ، وذلك في صدد الكلام من امرأة قبيحة المنظر أحبّ ان يرسم صورتها : وهنا يحسن أن نشير الى ان جميع الاشكال والصور كانت عند ليوناردو على مستوى واحد من حيث استحقاقها للتخليد والبقاء . فكان يرسم القبيح والمليح على السواء . وذلك ناشئ — في اعتقادنا — من نظرته الفلسفية التي ألممنا بها فيما سبق : وهي ان جميع الاشياء على السواء في قيمتها المطلقة وان وجودها محتوم لا محيص عنه ، ولكن هذا الوجود لا يسيطر عليه العقل انما تسيطر عليه الحكمة او المنطق والقوانين الكونية والرياضية الخالدة . لهذا كان أشرف ما يمارسه المرء ويسعى اليه اكتشاف هذه القوانين والتنبيه اليها

ويعلل احجام ليوناردو عن الزواج والنساء بانصرافه الانصراف كله الى الفن والعلم اللذين لا شك سموا به عن مستوى اللذائذ الحسية . وليوناردو نفسه يقول في هذا الشأن : « ان الانقطاع الفكري يطرد الشهوة ، وان عمل العقل وكل ما يتعلق به لمن الكراهة بحيث كان يزول الجنس البشري من الوجود لولا أنّ ثمة وجوهٌ جميلة وميولٌ شهوية »

***

ولما طُرد الفرنسيون من ميلان شخص ليوناردو الى روما . وهناك انتظم في خدمة البابا . الاّ ان هذا لم يعرف لليوناردو قدره . ولم يستطع ان يفهم استقلاله برأيه وإباءه التزلف وبطئه في العمل بالنسبة الى رفائيل الذي كان يخرج للبابا إذ ذاك مثل ما تخرجه آلة التصوير في هذه الايام وبعد ان صرف ليوناردو عامين في روما جاءته دعوة من فرنسيس الاول ملك فرنسا . ولبى الدعوة عالاً . وأحلّ في فرنسا محلاً ممتازاً واعدّ له الملك منزلاً جميلاً ولم يكلفه قطّ عملاً من الاعمال ، وما كان يستطيع ذلك ولو كلّفه . فقد شُلّت يده وعاد لا يستطيع العمل

وفي عام ١٥١٩ لفظ الفنان آخر نسمة من نسمات هذه الحياة الجافلة مستودعاً روحه الاله الأعظم والعذراء ماري وجميع الملائكة والقديسين

كذلك عاش ليوناردو موزعاً بين العلم والفن جاهداً في سبيلهما كل الجهد منصرفاً اليهما كل الانصراف . على ان هذا الجهد وهذا الانصراف لم يفقدا الفنان صفته الانسانية . وهو ما يتعرض له المنصرفون الى الاعمال العقلية في الغالب . وظل على اتصال شديد بالحياة محبًّا للناس مؤثراً لهم كرعاً رفيقاً بتلاميذه عطوفاً عليهم الى حدّ بعيد . وقد اتخذ خصوم ليوناردو هذه العلاقة الحميمة بين المعلم وتلاميذه تكأة يتكئون عليها في نسبة ليوناردو الى الشذوذ الجنسي والميل الى الغلمان . وقد نسي هؤلاء المشنّعون ان عطف ليوناردو لم يضق حتى عن الحيوان . وقد رأينا كيف ظهرت ميوله الرفيقة منذ كان يافعاً او صبيًّا

وهذا العطف من ليوناردو على الحيوان قاده في الشطر الأخير من حياته الى الانصراف عن اكل اللحوم والاستعاضة عنها بأكل الخضر والبقول والحبوب ليس غير

اما المعتقد فالراجح ان ليوناردو كان على ايمان وطيد ، ولكن ليس هذا الايمان الذي كان شائعاً لعهده ، انما هو ايمان العالم مما عقله عن مستوى الخرافة وتنزّه عن تصديق المستحيل

وقد تساءل مرجشكي في عرض الحديث على معتقد ليوناردو فقال : أيعقل ان يكون ملحداً من يرسم صورة كصورة العشاء الرباني ؟ ! ومن يكون اقرب الى المسيح من مصوّر هذه الصورة ؟ !

وكان ليوناردو يميل الى البساطة في كل شيء . فلم يكن يطيق الالوان القوية في اللباس . وكان يكره التضمّخ بالطيب من اي نوع كان . وهذه البساطة لم تكن مقتصرة على هذه النواحي المادية وحدها انما كانت بادية في سلوكه وعلاقاته مع الناس . ولكنها كانت بساطة الرجل العظيم تحفّها المهابة ويجلّلها الوقار ويُعلي من قدرها في نفوس اصفيائه واصدقائه ما وهبهُ من ذكاء خارق وعبقرية نادرة

ويروى عن تساهله ودماثة خلقه ان الفنان الناشيء مخايل انجيلو انفجر يوماً في وجهه انفجاراً شديداً لتوهمه ان ليوناردو نال منهُ في مناسبة من المناسبات . وخاطب مخايل ليوناردو بكلام جارح وعيّرهُ بأنه لم يستطع ان يكمل تمثالاً من تماثيله الضخمة عجزاً وقصور باع . وكان كل رد ليوناردو على هذا الفتى الثائر ابتسامة هادئة مسالمة

ونقف عند هذا الحد من الحديث عن هذه العبقرية ، آملين ان تكون قد جلونا لقراء « المقتطف » الأغر في هذا المقال والمقال السابق صورة لا شك انها من اروع صور العبقرية وابقاها على الدهر